الباب الأول

obeikan.com

مذكرات الطفولة

هل تختلف الطفولة من جيل إلى آخر..

هل طفولتي منذ أكثر من نصف قرن تتشابه مع طفولة اليوم؟

الإجابة.. طبعاً هى تختلف فى جوانب كثيرة.. وقد تتفق أيضاً فى جوانب أخرى.

كان زماننا مختلفاً عن زماننا اليوم..

كان زماناً بسيطاً.. كل شئ فيه سهل وبسيط.. مشاكله محدودة.. خاصة فى هذا الريف الذى عشت فيه.

الناس ـ زمان، فى الريف ـ يصحون مع طلعة الشمس.. يتوكلون على الله منهم من يذهب إلى الحقل يسوق ماشيته.. يستقبله الندي والخضرة والنسيم العليل.. والمياه الجارية.. بكل الفرحة والسعادة.

وعندما يصل الفلاح إلى الحقل يتحسس النبات الذى زرعه بالأمس ويرعاه ويعتني به.. حتى ينضج.. ثم يجنيه.. ويعيش من ثمنه هو وأسرته.

كان الفلاح فى زماننا مرتبطاً بأرضه ارتباطاً قوياً.. لا شئ يشغله عن رعاية هذه الأرض.. فهى مصدر رزقه.. وهى حياته وتفكيره ليل نهار.

وكان غير الفلاح يذهب إلى عمله أيضاً.. ويعمل طول يومه بإخلاص وضمير.. ويراعي الله فى كل شئ..

الصانع فى مصنعه..

والعامل فى شركته..

والمدرس فى مدرسته..

والتلميذ فى مدرسته..

وأولا وأخيراً الأب والأم فى بيتهما.. يحرصان دائما على تربية ومراقبة أبنائهما حتى يشبوا على الاجتهاد والنجاح والتفوق.

وكنا تلاميذ صغاراً.. نعمل حساباً للمدرس وحساباً للأب والأم.. ونتنافس فى التفوق والمذاكرة.. ونتفاخر بالنجاح.. ونحزن لو قلّت درجات أي مادة فى شهادة المدرسة.. ونخاف معاقبة الأب والأم.. وهذا العقاب يتراوح بين نظرة اللوم والعتاب والمقاطعة ويتصاعد حتى الضرب.

ثم.. لم يكن فى زماننا ما يأخذنا من أنفسنا أو من مذاكرتنا.. فلا يوجد هذا النادي الذى نلتقي فيه صحاباً وأصدقاء.. ولا يوجد تليفزيون يجعلنا نتسمّر فى مقاعدنا أمامه.. ولا يوجد كمبيوتر يربطنا أمامه بالساعات.. ولا توجد السينما التى نتسلى بأفلامها.. ولكن كان الهدف الأسمى لنا هو المذاكرة وإشباع الهوايات فى

نطاق المدرسة.. أو فى ساحة البلدة التى شهدت مباريات لكرة القدم بين تلاميذ المدارس.

لهذا أقول إن زماننا كان مختلفاً.. وبالتالي كانت طفولتنا مختلفة بل أكاد أقول إنها طفولة تتحدى الظروف كلها من أجل المعرفة والتحصيل فكثيراً ما كانت مكتبة المدرسة هى المجال المعرفي الوحيد الذى يلجأ إليه العقل.

من الظلم إذن أن نساوى طفولة الأمس بطفولة اليوم وأن نقارن زماننا القديم بهذا الزمان.

وفكرت فى كتابة بعض الذكريات عن هذه الطفولة التى قضيتها فى بلدي «بيلا ـ كفر الشيخ» حتى سن السادسة عشرة.. فبدأت فعلاً أنحت فى ذاكرتي وأختار تلك المواقف والذكريات التى إن قرأها طفل اليوم حسبها من قبيل الخيال البعيد عن الواقع.. بالرغم من أنها ـ والله العظيم ـ واقع بالفعل.. وحادث خلال طفولتي..

وبدأت فعلاً فى كتابة بعض المواقف والذكريات ثم وضعتها جانباً وشغلتني عنها مشاغل الحياة الضاغطة.

وها أنذا أقدم هذه المذكرات المختارة حرصت أن أكتبها ببساطة وعفوية ـ فبعضها يثير الدهشة وبعضها الآخر يثير الابتسامة ـ وقد نلمس فى بعضها الإصرار والتحدي.. وفى بعضها الآخر التصميم على تحقيق الهدف.. وهذا وذاك فى النهاية يشكل الشخصية.. ويميزها.

وليسمح لي القارئ أن أتحدث بصيغة الغائب وأعبر عن نفسي

(بالفتي).. وفى ذلك حرية أكبر فى التعبير.. وبعد عن النرجسية والمبالغة..

أتمني أن أكون قد وفقت فى تقديم هذه المذكرات الشخصية.

obeikan.com

البداية

قدر للفتى أن يكون أكبر إخوته الصغار.. فقد كانت أمه هى الزوجة الثانية لأبيه الشيخ بعد وفاة زوجته الأولي التى تركت أبناء كبارا.. ولدين يعملان فى مهن حرة.. وبنتين تعملان فى البيت الكبير.. ثم تزوج الشيخ بأمه وكانت صغيرة السن ليرزق منها بأربعة أبناء ثلاثة أولاد وبنت واحدة.

هذه هى حسبة الأسرة الكبيرة التى يضمها بيت من طابقين..

وكان الوالد أحد مشايخ الطريقة الأحمدية.. وتيمناً بسيدي أحمد البدوي أطلق على الفتي اسم (أحمد)

فتح الفتي عينيه منذ نشأته على حلقة الذكر التى كان يقيمها أبوه الشيخ بمساعدة أحد أبنائه الكبار فى صحن البيت.

وتستهويه الأناشيد الدينية.. ويحفظ عن ظهر قلب تلك (المنظومة الشعرية) فى مديح النبي (ص) ويقف إلى جوار الذاكرين ـ طفلاً قزماً ـ يذوب معهم فى الذكر.

هذا المناخ الخاص حفزه منذ طفولته على طرح أسئلة كثيرة تتعلق بالدين والخالق العظيم.. وأمور الحياة المختلفة.. وكان أبوه

لا يضنّ عليه بالإجابة.. والمعرفة..

كان بيتاً كبيراً.. وكان الوالد معروفاً فى البلدة.. وكثيراً ما كان يستضيف أشهر قراء مصر للقرآن الكريم.. ويبيتون عنده فى البيت.. بل كان الفتى يجد متعة كبيرة فى الجلوس إليهم وهم يتحدثون فى أمور كثيرة مع أبيه.

طبع هذا المناخ الروحي الجميل جو البيت بطابع خاص.. فالكل يؤدي فريضة الصلاة.. الأولاد يذهبون إلى جامع (المعداوي) على بعد خطوات من البيت.. والبنات يصلين فى البيت.

ويتذكر الفتى أنه كان حريصاً على الذهاب إلى المسجد مبكراً عند كل صلاة ويتحين فرصة تأخر المؤذن فيسرع إلى سطح المسجد ويرفع الأذان ويلوِّن صوته وينغمه كما يفعل المؤذن.. ويتذكر مرة أن أحد زملائه قرر أن يسبقه إلى سطح المسجد.. وأخذ يزاحمه فى سلم المئذنة الملتوي الضيق حتى وصلاً معاً إلى السطح.. وحلاً لهذا الموقف.. تقاسماً رفع الأذان معاً.

وكان الناس من حوله سعداء لأنه ابن هذا الشيخ الذى يحترمه الجميع.. ولم يحل صغر سنه دون ممارسة هذه العادة التى أحبها وهى رفع الأذان وإقامة الصلاة.

وفجأة.. والفتى على مشارف العاشرة من العمر ـ يرحل أبوه الشيخ عن الدنيا.. ويشعر الفتى ـ بفقد أبيه ـ أنه فقد موجهاً ومرشداً ومعلماً.

وينظر الفتى حوله.. فيجد نفسه أكبر إخوته.. وبجانبه تلك الأم الصغيرة السن وإخوته الصغار.. وأمامه إخوة غير أشقاء كبار يختلفون فى مشاعرهم وعواطفهم نحو أسرته الصغيرة.

أحلام كبيرة فى عقل صغير

تصدع البيت الكبير بعد غياب الأب.. وثارت مشاكل كثيرة حول حقوق الأطفال الصغار وأمهم وكان الحل الوحيد أن تخرج الأم بأولادها إلى بيت آخر.

لم يكن البيت الآخر مثل البيت الكبير.. فقد كان بيتاً بسيطاً مبنياً من الطوب اللبن.. تتساوى أرضيته مع أرض الشارع الخارجي.. فقط يفصل بينهما عتبة من الخشب.. ثم يفتح الباب الخارجي على صالة ضيقة فيها كنبة فلاحى.. ومنضدة خشبية قديمة نقلت من مطبخ البيت الكبير.. استخدمها الفتى مكتباً للمذاكرة مع إخوته.. وعلى اليسار غرفة النوم بدولاب الأم القديم.. والسرير ذو العمدان الحديد والناموسية البيضاء.. ثم تؤدي الصالة إلى فناء واسع يضم غرفتين الأولى لخزين الطعام.. والأخرى تضم فرناً لصنع الخبز.

لا أريد أن أصف بساطة البيت أكثر من هذا.. يكفى أن أقول إن الفتى كان يذاكر على لمبة جاز (نمرة ٥) بشعلة بسيطة.. واستطاع هو وإخوته أن يواصلوا دراستهم فى هذا الضوء الخافت وكان قلب الأم هو المصباح القوى الذى يضئ لهم ويشجعهم على التفوق.

رفضت الأم أن تتزوج ـ برغم صغر سنها ـ وصممت على تربية

صغارها.. رفضت أيضاً أن يكون أولادها صبيانا فى مهن مختلفة.. وكانت هذه إحدى المشاكل التى واجهتها مع الإخوة الكبار.

غرست الأم فى قلب فتاها البكر حب الكفاح.. وكان لها أخ صاحب دار نشر كبري فى القاهرة وضعته نموذجاً أمام عينى فتاها.. ووعد الخال الفتى لو حصل على الثانوية العامة أن يلحقه بعمل إلى جواره فى القاهرة.

الطريق طويل.. أمام الأم وأولادها.. ساعدها أخوها مادياً.. إلى جانب الفتات الذى كانت تحصل عليه من حقوق أولادها لدي الإخوة الكبار..

فجأة هاجم الفتى شيطان الشعر.. جذبه كثيراً من مذاكرته.. لكنه سرعان ما كان يتذكر مسئوليته القادمة فيخفى أوراقه وقصائده.

ويتذكر كيف كانت أمه تدخل عليه وهو يجلس متربعاً على السرير وأمامه حقيبته الخشبية متخذاً منها متكئا لكتابه الذى يذاكر فيه ـ وتدخل الأم ـ وهى مثل كل أمهات ذاك الجيل أمية لا تعرف القراءة ولا الكتابة.. لكي تطمئن عليه.. لكن الفتى كان يندهش حينما تدخل عليه وهو يكتب الشعر.. فتدرك أمه ذلك وتصيح فى وجهه: مش وقته يا ابني.. ذاكر الأول وبعدين اكتب الشعر اللي بيعطلك ده.. يندهش الفتى: كيف أدركت الأم الأمية أنه يكتب الشعر ولا يذاكر.. لابد أن إحساس الأم بولدها أعمق وأصدق كثيراً من أي شئ آخر.

تعرف الفتى على صديق قريب من بيته فى مرحلته الدراسية.. كان الفتى متفوقاً.. دعاه الصديق ليذاكر معه فى بيته.. سمحت

لـه أمـه.. لم يكـن بيـت صديقـه مثـل بيتـه البسـيط.. كانـت فيـلا مـن دوريـن.. مضـاءة بمصابيـح غازيـة ضخمـة تحافـظ عـلى سـلامة العينـين.. سـلم الفتـى بـما فـرض عليـه.. فصديقـه يسـتفيد مـن تفوقـه.. وهـو يسـعد بالضـوء الـذى يجعلـه مسـتمتعاً بالمذكـرة.

قالت الأم له ذات صباح:

لا يشـغلك شـئ عـن المذاكـرة.. وربنـا موجـود وعـارف أنـا قـد إيـه بادعيلـك مـن قلبـي تخلّـص الثانويـة.. ونـروح كلنـا مـصر.

مـصر.. حلـم الفتـى بمـصر.. القاهـرة.. إذن سـيأتي يـوم يركـب القطـار مـن محطـة بيـلا بـراري إلى محطـة القاهـرة.. إنـه يسـمع كثـيراً عـن العاصمـة.. مـاذا إذن يحمـل لـه الغـد.. وكـم يبقـي مـن السـنوات حتـى يحقـق هـذا الحلـم.

وضـع الفتـى حلمـه جانبـاً أمـام ناظريـه.. كأنـه جائـزة للتفـوق.. وبـدأ يلتهـم الكتـب ويسـهر ليـلاً.. ويصـلي ويدعـو الله.. حتـى يتحقـق الحلـم.

الفتى.. والبيت البسيط

لم يكن أمام الفتى إلا أن يجتهد فى مذاكرته.. وكانت أمه تمثل الحصن المنيع الذى يهيئ له جو المذاكرة.. ويبعده عن أي صعوبات أو مشاكل.. لكنه مع ذلك كان يحس بمعاناة الأم التى تحملت عبء تربيته وإخوته.. ورفضت أن تتزوج بعد وفاة أبيه من أجل مستقبل أولادها الصغار.

كان الفتى معتاداً على الاستيقاظ فى الصباح الباكر.. ثم يذهب إلى المدرسة ليعود ويجلس إلى كتبه حتى تتعب عيناه.. فينام.

أما الأيام التى لا يذهب فيها إلى المدرسة فقد اعتاد أيضاً أن يصحو مبكراً.. ثم يلبس جلبابه الذى يحتوى على جيبينْ عميقين يميناً ويساراً (١) فيضع فى أحد الجيبين كتاباً وفى يده اليسري كتاباً آخر.. وفى الجيب الآخر قطعاً صغيرة كثيرة من الخبز الفلاحى المحمص الجاف (المقرمش) ثم يبدأ رحلة المذاكرة على طريق سكك حديد الدلتا ابتداء من بلدته بيلا.. حتى تتعب قدماه من المشي.

كانت رحلة الذهاب يلتهم فيها كتاباً مقرراً.. ورحلة العودة يلتهم فيها كتاباً آخر.. ويقتات طوال الرحلة بالخبز المقرمش.

١ - يسمى هذا الجيب العميق فى الريف (سيالة)

وكانت الرحلة تستغرق عدة ساعات يستمتع فيها بالطبيعة الممتدة يميناً ويساراً.. وفى نهاية رحلة الذهاب يستريح فى ظل شجرة لبعض الوقت ثم يستأنف رحلة العودة إلى بلده فى سعادة.

ذلك كان برنامجه اليومي فى أيام ما قبل الامتحان.. وقد يشاركه بعض الأصدقاء تلك الرحلة التى تتكرر كل يوم حتى موعد الامتحان.

أما فى يوم الجمعة من كل أسبوع.. فهو يوم الراحة حتى صلاة الجمعة فقط.. لكن الفتى وإخوته كانوا يقومون بواجب آخر للأم العظيمة..

كان يوم الجمعة هو يوم صناعة الخبز (الخبيز) فى فرن البيت.. ولأن هذا الفرن البلدي يحتاج إلى كمية من القش والحطب لتشتعل فيه النار فقد كان الفتى يقود إخوته فى الصباحالباكر لكي يحوِّلوا كوم القش والحطب إلى عدد كبير من (الربط) فيسهل على الأم أن تأخذ ربطة أو أكثر من القش وتلقيها فى جوف الفرن ليشتعل ويزداد اشتعالاً.

وكان الفتى وإخوته سعداء بهذا العمل الأسبوعي.. وكانت الأم تصنع لهم فى الفرن ـ لقاء هذا التعاون الجميل ـ هذا الخبز الذى (يتقمَّر) فى النار ويحتوى على البيض أو السمن.. وكان هذا هو الطعام المفضل للإخوة فى هذا اليوم من الأسبوع.

أما الأيام الأخرى فكانت الأم تتحايل من أجل توفير الطعام.. فحيناً تطبخ الأرز وتمزج به عدداً من البيض المقلي.. ويأكل الجميع أرزاً ببيض أو تطبخ الكشري من العدس الأصفر مع الأرز.. إلى جانب تربيتها لعدد من الطيور مثل الدجاج والبط

والـوز.. وكثـيرا مـا كان الفتـى يدخـل عـلى الأم فى المطبـخ.. ويحـضر رغيفـاً مـن الخبـز الفلاحـى ويطلـب مـن الأم أن تغمسـه فى صلصـة الطماطـم السـاخنة. ويسـتمتع بهـذا المـذاق الطيـب.. ثـم يـسرع إلى المذاكـرة..

كانـت الحيـاة بسـيطة برغـم المعانـاة.. طيبـة برغـم كل المـرارة التـى كانـت الأم تشـعر بهـا.

opeikan.com

براءة الدهشة

راقب الفتى بشوق شديد أخاه الأكبر غير الشقيق وهو يثبِّت جهاز الراديو الكبير فى مكانه المرتفع.. لقد ظل أخوه طوال اليوم يحفر فى الحائط السميك حفرة بقدر حجم هذا الجهاز العجيب.. وها هو الآن يضع الجهاز.. ثم يدلىَّ منه السلك الذى يتصل بالبطارية المشحونة.. وها هو يسمي بالله ثم يدير بأصابعه أزراراً معينة.. فإذا صوت يخرج من هذا الجهاز العجيب يغني: محلاها عيشة الفلاح.. صاح أخوه فى سعادة: الله أكبر.. ده عبد الوهاب يا أولاد.. اندهش الفتى وتساءل فى نفسه: كيف عرف أخوه الأكبر اسم هذا المطرب.. لابد أنه سمعه من قبل.

جلست الأسرة كلها تستمع إلى هذه الأغنية.. تخيل الفتى عبد الوهاب هذا فى الحقل يمسك بآلته الموسيقية ويجلس وسط الفلاحين يغني لهم.. محلاها عيشة الفلاح.. ما أجمل هذا الخيال.

أغلق الأخ الأكبر جهاز الراديو بعد انتهاء الأغنية.. وبدأ يعطي تعليمات مشددة بعدم الاقتراب من هذا الجهاز.. ثم انصرف إلى عمله.. وانصرف باقي الأسرة إلى داخل البيت.. ولم يبق غير الفتى غارقاً فى دهشته وتساؤلاته.

تطلع الفتى إلى أعلا حيث يوجد الجهاز فى مكان مرتفع فوق الكنبة الكبيرة.. لكن.. تمني الفتي حتى لو لمسه بيديه.. ولم لا..

لـن يحـدث شـيء.. إذن عليـه أن يتأكـد أولا أن أحـداً لا يـراه.. تذكـر تعليـمات أخيـه المشـددة وتحذيـره بعـدم الاقـتراب مـن الجهـاز.. هاجمـه هـذا الخاطـر الملـحّ أيضـاً أن يصـل إلى الجهـاز وليكـن مـا يكـون.

تلصـص فى خفـة ليتأكـد مـن انشـغال الجميـع داخـل البيـت.. ثـم أسرع وصعـد الكنبـة الكبـيرة.. فوجـد الجهـاز أمـام وجهـه تمامـاً.. تحسسـه بيديـه.. إن إطـاره مصنـوع مـن الخشـب.. ولـه شاشـة ذات ملمـس خشـن.. يعلوهـا جـزء زجاجـي مرقـم وفيـه مـؤشر.. ثـم أمامـه أزرار ثلاثـة.. تـري أي الأزرار كان أخـوه الأكـبر يحركـه ليسـتمع إلى عبـد الوهـاب.. انقضَّـت عليـه تعليـمات أخيـه المشـددة.. سـأل نفسـه: ولمـاذا لا أحـاول مثـل أخـي وأسـمع عبـد الوهـاب.

أخـذ الفتـى وقتـاً لحسـم الـصراع بـين تعليـمات أخيـه ورغبتـه فى المعرفـة.. انتـصرت رغبتـه أخـيراً.. مـد أصابعـه المرتعشـة إلى أول الأزرار.. وجـده يتحـرك بعـد أن سـمع تكـة صغـيرة.. أدار الفتـى الـزر قليـلاً فـإذا بصـوت يخـرج مـن الجهـاز يقـول: هنـا القاهـرة.. انزعـج الفتـى فـأسرع بإغـلاق الجهـاز.. لم يكـن عبـد الوهـاب يغنـى.. قـال لنفسـه: لابـد أنـه تـرك الفلاحـين فى الحقـل وركـب القطـار إلى القاهـرة.

مـاذا يفعـل الفتـى.. انتظـر قليـلاً.. ألحـت عليـه رغبتـه مـرة أخـرى.. عـاود فتـح الجهـاز فسـمع صوتـاً نسـائياً يغنـى: (يـا عطارين دلـوني.. الصـبر فـين ألاقيـه).. علـت وجهـه دهشـة مسـتفزة.. حـاول أن يتبـين ملامـح هـذه المـرأة التـى تغنـى.. لكـن كيـف.. وجـد فى أعـلا الجهـاز فتحـة صغـيرة.. لابـد أنـه يسـتطيع أن ينظـر مـن خلالهـا.. شـب فـوق أطـراف أصابـع قدميـه ليضـع عينـه اليمنـى عـلى الفتحـة ويغمـض عينـه اليـسري.. لكنـه لم يـر أحـدا وجـد ليـلاً أسـود إلا مـن

نقطه ضوء حمراء داخل الجهاز.. زادت دهشته.. لابد أن المرأة تغنى وراء حجاب.. لأنها امرأة.. فى أثناء ذلك انتهت الأغنية.. ثم علا صوت يعلن عن أغنيه أخرى لعبد الوهاب تقافز الفتى سعيداً فوق الكنبة.. إنه عبد الوهاب.. لابد أنه يستطيع الآن أن يراه من خلال الفتحة.. لأنه رجل.. لن يغنى من وراء حجاب.. بدأت الأغنية: (القمح الليلة).. شب مرة أخرى فوق أطراف أصابع قدميه.. ثبت عينه اليمنى فوق الفتحة.. لكنه لم ير شيئا أيضا !.

ماذا جري..؟

سأل الفتى نفسه.. ومن أين يأتي هذا الصوت.. وأين عبد الوهاب هذا بل أين المرأة التى كانت تغنى.

حزن الفتى لأنه لم يجد إجابة عن هذه التساؤلات.. أغلق الجهاز بعصبية غاضبة.. تكور فوق الكنبة فى كآبة شديدة.

هل يسأل أخاه الأكبر عندما يعود إلى البيت.. هل يحكي له ما فعله.. ظل فى حيرته حتى أخذته سنة من النوم.. فنام تحت الجهاز.. واستراح من وخز الأسئلة.

ندوة الشيخ عبد الهادي

البيت.. المدرسة.. المسجد.. ثم فى الإجازة ملعب الشارع.. تلك كانت الأماكن التى عرفها جيل الفتي.. لم يكن يوجد أندية.. ولا ساحات شعبية.. ولا مكتبات عامة.. ولا سينمات ولا مسارح.. ولا تليفزيون.

يتذكر الفتى أن أول راديو دخل إلى بلدته الريفية كان لدي البيت الكبير الذى يتصدر الميدان الذى به بيت أبيه.

كان صاحب هذا البيت وأولاده تجاراً للسمك.. يصطادونه ويبيعونه فى دكاكين البيع.. وحينما أحضر صاحب البيت الراديو وضعه على نافذة الطابق الأعلى وفتحه وجعل صوته عاليا لكي يسمعه الناس فى بيوتهم.

وكان الفتى يسرع محافظاً على الصلوات فى المسجد.. وكان الشيخ عبد الهادي عيد يقيم ندوة يومية تبدأ من بعد صلاة العصر حتى يؤذن المغرب.. ولم تترك الندوة حدثاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو حادثة إلا ودارت حول ذلك مناقشات حرة.

تعلم الفتى أدب الحوار والنقاش من هذه الندوة رغم صغر سنه.

وكان صاحب الندوة يفخر بنفسه بأنه لا يحمل أي شهادات سوي شهادتين: أنه مسلم..وشهادة الفقر.. وبالرغم من ذلك كان الرجل قارئاً مثقفاً.. غرس فى الشباب حب القراءة والمعرفة.. وكان ضعيف النظر ويبرر ضعف نظره بأن العين من كثرة القراءة والتهام الكتب ضعفت.. وأفرغت دموعها..

وكان هذا الشيخ يجيب بعلم ومعرفة عن أي سؤال.. كان يشرح مقرر التاريخ المعاصر الذى يدرسه الفتى فى المدرسة.. ويشرح الجغرافيا والنصوص والنحو.

وحينما أعجب الشيخ بالفتى.. كلفه هو وصديق له بالاستماع إلى نشرة أخبار الثانية والنصف فى الراديو الذى يمتلكه البقال بجوار المسجد.. ثم يسرعان إلى صلاة العصر.. ثم حينما تبدأ الندوة يبدأ الفتى بسرد الأخبار يوماً وصديقه يوماً آخر.

ولأن الفتى كان يخشى أن يظهر أمام الحاضرين بعدم الاستيعاب.. فقد درب ذاكرته على حفظ الأخبار وعدم النسيان خشية أن يتدخل صديقه ويكمل ما نسيه الفتى.

لقد كان الشيخ عبد الهادي يغرس فى الفتى وأصدقائه الفهم والاستيعاب فلم يكن يكتفي أن يسرد الفتى الأخبار التى سمعها وإنما كان يبدأ حواراً ويصر أن يشترك الفتى فيه برأيه.

تكون لدى الفتى ذلك الحس السياسي ووضوح الرؤية بالقدر الذى يتيحه الإعلام المسموع.. وما يقال أيضاً فى المدرسة.. وما يستمع إليه من خطب وطنية فى طابور الصباح.. ولم يكن شعره سوى ترجمة لكل هذا فى البداية.

ومرة أراد الفتى أن يداعب الشيخ عبد الهادي فقال له:

يا شيخ نحن نستمتع بحلقات ألف ليلة وليلة فى الراديو.. وأيضاً بقراءة بعض السير الشعبية التى كانت تروي قديماً قبل أن تدون.. أليس لديك سيرة شعبية تستطيع أن ترويها لنا ونستمتع بها؟

ابتسم الشيخ وصمت قيلاً ثم قال:

صلوا على النبي.

كان يا ما كان فى سالف العصر والأوان..

وبدأ الشيخ يحكى.. وكان يخصص نصف ساعة من وقت الندوة لاستكمال حلقات الحكاية الشعبية.. ويتذكر الفتى كيف كان الجميع مشغوفين بما يحكيه الشيخ.. وظل يحكي ويحكي لأيام طويلة لا يذكرها الفتى.

وحينما حصل الفتى على الثانوية العامة وأعد العدة للرحيل إلى القاهرة.. أخبر الشيخ بذلك وتأثر الشيخ بافتقاد الفتى فى ندوته.

يتذكر الفتى الكلمة الأخيرة التى لا تزال ترن فى سمعه.. قال الشيخ:

لن نفتقدك يا ولدي ستكون سفير الندوة فى مصر (القاهرة) وحينما تزورنا فى أي إجازة ستجدنا فى انتظارك لتحكى لنا عن مصر.

صندوق الحكايات

كان الفتى يسرع مع أصدقائه إلى هذا الرجل الذى يحمل على ظهره صندوق الدنيا(٢).. يمنحه كل منهم مليماً أو مليمين.. فيضع أرجل الصندوق على الأرض.. ويجلسهم على دكته الخشبية ثم يدخل رءوسهم تحت غطاء ناظرين من خلال عين زجاجية إلى هذا الشريط المصور المصحوب بسرد حكاية على لسان صاحب الصندوق..

أطلقوا عليه صندوق الدنيا.. أو صندوق الحكايات.. ولابد أن ما يخترعه صاحب الصندوق من حكايات تصاحب الصور.. أثر فى تنمية خيال الفتى.. وتنمية عقله أيضاً.

وكثيراً ما كان يعود إلى البيت ويحكى ما رآه فى هذا الصندوق بأسلوبه الخاص.. وقد يزيد عليه أو يغير من أحداثه.

فكر الفتى أن يخترع لنفسه صندوقاً خاصاً.. ويدعو إخوته وزملاءه لمشاهدة ما فى هذا الصندوق.

ما هى الأدوات التى يريدها؟

---

١ - يسمى أيضاً فى الريف: صندوق العجب

openkan.com

حددها الفتى فى علبتين من علب الأحذية المصنوعة من الكرتون.. وسلك صلب يركب فى كل علبة بحيث يسهل لفه وإدارته يميناً أو شمالاً.. ومجموعة من الصور التى يقصها من المجلات للممثلات والممثلين.. وعجينه لصق مكونة من الدقيق الأبيض الممزوج بالمياه.

أخذ الفتى يلصق الصور بعناية شديدة حتى كون منها (شريطاً) طويلاً طوله نحو خمسة أمتار.. ثم وضع إحدى العلبتين يميناً وركب فيها السلك الصلب ولصق طرف الشريط الأول به.. ثم أدار السلك داخل العلبة نحو اليمين فالتف الشريط كاملاً حول هذا السلك.. ثم أحضر العلبة الأخرى وجعلها بمواجهة العلبة الأولى ولصق طرف الشريط الأخير بالسلك.

أصبح من اليسير الآن تحريك الشريط يميناً أو يساراً.. بقي فقط أن يخترع حكاية أو كلاماً يناسب الصور.

لم يكن الأمر صعباً عليه فهو يدعى أنه يمتلك خيالاً خصباً..

أفلح الفتى فى اختراع الكلام المناسب.. ودعا إخوته وزملاءه وبدأ يدير الشريط ببطء بعد أن ثبَّت العلبتين فى مكانين متواجهين وأخذ يحكي ويحكي كما كان صاحب صندوق الدنيا يحكي.

كانت تجربة طريفة سعد بها الفتى وأسعد إخوته وزملاءه وظل يبدل فى هذا الشريط كلما شعر أنه صار مملاً وأن (المتفرجين) يطلبون الجديد.

تري أكان هذا إرهاصاً لشئ فني..

أهو فن السينما..

أم هو الفيديو..

أم هو خيال مبدع..

هكذا جرب الفتى حاسته الفنية لكنه فى النهاية انحاز إلى فن الشعر باعتباره هذا الفن الذى يعبر مباشرة عن إحساس الإنسان ومشاعره.

obeikan.com

نبضة قلب فى غير وقتها

لا يذكر الفتى فى طفولته أن إحساسه العاطفي تحرك فى داخله لغير أمه.. وأخته الصغيرة.. وأختيه الكبيرتين.. ويتذكر أيضاً أن أخته الكبيرة(فتحية) كانت تكن له حباً خاصاً.. وتؤثره بعطفها وحنانها.. ولا ينسى الفتى أنها هى التى أيقظت ذهنه ووجدانه على الحكايات والأساطير.. وكثيراً ما كان يتخيل ما ترويه أخته واقعاً.. فيبيت طوال الليل يحلم بما تحكيه.. أو يتملكه الخوف فلا يغمض عينيه..

وكثيراً ما كانت أخته تخفي نفسها فى عباءة أبيه السوداء وتداعبه كأنها عفريت مخيف.. فيشعر بالخوف ويصرخ.. وسرعان ما تخلع الأخت هذا القناع الأسود وتضحك ويضحك معها وتضمه إلى صدرها.

ويعترف الفتى أنها بهذه الحكايات والمداعبات استطاعت أن تستفز خياله وهو صغير وكثيراً ما كان يستمع مثلاً إلى حكايات ألف ليلة وليلة فى الراديو.. فيتخيل قصر شهريار.. والجزيرة المسحورة.. وعلاء الدين.. والسندباد البحري وغيرها من الشخصيات والأحداث ويسرح بخياله.. ويطلب من أخته بعض

التفسيرات التى لا يقدر عليها عقله.. فتفسرها له ببساطة.

ويتذكر أيضاً أن طبيباً يونانياً كان يسكن فى مواجهة البيت الكبير فى الطرف الأخر من الميدان واسمه (جورجي) وكانت له أخت فى سن أخته الكبيرة.. وكثيراً ما كانت تطلب أخت الطبيب من أخت الفتى أن ترسله إليها لأنها تجلس وحدها.. فتلعب معه وتحكي له بلسانها الملتوي بالعربية.. وتغني له أغنية ليلى مراد (الدنيا حلوة نغمتها حلوة) وكان صوتها جميلاً.

أما علاقته بأمه فكانت أكثر عمقاً.. فبالرغم من أنها أمية.. فقد استطاع أن يحفِّظَها بعض سور القرآن الكريم مثل سورة ياسين والواقعة وقصار السور.. ويقرأها معها.. ثم تصلي بهدوء شديد وصعوبة فى النطق.. وكان يعمل حسابها فى كل شئ.. حتى لا تغضب عليه لأنه كان شديد اليقين أن الجنة تحت أقدام الأمهات.

وحينما انتقلت الأسرة الصغيرة إلى بيت آخر بعيد عن البيت الكبير.. قلت صلة الفتى بأخته الكبيرة وبأخت الطبيب.. ربما لأنه كبر قليلاً واهتم بدراسته.. لكنه لا ينسي حينما كان يسير مع أصدقائه فى طريقه إلى المدرسة.. وعلى قمة الشارع الذى به بيته.. وبالتحديد فى الطابق الثاني.. حيث توجد نافذة فُتحت قليلاً.. بحيث ينظر إليها من يسير فى الشارع من أسفل كأنها مثلث حاد الزوايا.. ويتذكر جيداً أن هذا المثلث كان يطل منه وجه مبتسم لفتاة سمراء.. وحينما كان الفتى وأصدقاؤه يصلون إلى هذا المكان يتطلعون جميعاً إلى أعلا.. ويتصور كل منهم أن هذا الوجه يبتسم لكل منهم دون الآخر.

عاش الفتى هذا الوهم كثيراً.. إنها تبتسم له.. لكن من

هـى.. وبنـت مـن.. ولمـاذا تبتسـم لـه هـو بالتحديـد.. إنـه لا يعـرف.. ولعلـه أدرك أن شـيئا فى داخلـه بـدأ يتحـرك لكـن بصـورة مختلفـة وإحسـاس مختلـف عـن كل مـا يحسـه لأمـه ولأختـه.. وحتـى لأخـت الطبيـب اليونـاني.

لكـن هـل أيقـظ هـذا الوجـه شـيئا حقيقـاً داخلـه.. هـل فجـر شـيئاً كامنـاً.. لابـد أن اللاوعـى الغامـض كان يحـس بشـئ تفجـر فيـما بعـد شـعراً.. وحبـاً..!

شجرة التوت

اعتاد الفتي فى موسم التوت أن يخرج مع أصدقائه إلى أي حقل توجد فيه شجرة توت.. ثم يقسمون أنفسهم.. فواحداً يصعد الشجرة ليهز غصونها المحملة بالتوت.. فيسقط على الأرض.. والآخرون يجمعون الحبات.. ثم يقتسمونها ويأكلونها..

كانوا يفعلون ذلك خلسة.. أي أنهم عليهم أولاً أن يتأكدوا من غياب صاحب الحقل.. ثم يبدأوا فى عملهم.

ومرة جاء دور الفتى أن يصعد الشجرة.. وعلى الآخرين أن ينتظروا تساقط التوت.. وبجدية وضمير.. أخذ الفتى يهز الغصون والتوت يتساقط.. وفجأة ظهر صاحب الحقل.. وحاول الإمساك بأحد الأولاد.. ولكنه لم يستطع.. وأدرك الفتى الموقف.. فتجمد فى مكانه فوق الشجرة.

تطلع الرجل إلى أعلا فوجد الفتى.. وأخذ يأمره بالهبوط.. ويسبه بأقبح السباب والشتائم.. والفتى ميت فى جلده من الخوف لا يرد ولا يتحرك.. حاول الرجل أن يصعد الشجرة ليجذب الفتى.. وهنا نطق الفتى:

خليك يا عم وأنا نازل.

صاح الرجل: أنزل يا ابن ال..

ونـزل الفتـى ببـطء.. وفى ذهنـه أنـه سـيحاول الهـرب.. لكـن الرجـل كان منتبهـاً تمامـاً لهـذه المحاولـة.. فتلقفـه.. وانهـال عليـه ضرباً وصفعـاً.. والفتـى يـصرخ ويسـترحم الرجـل قائـلاً:

خليك رحيم يا عم.. أخر مرة تشوفني فيها.

لكـن الرجـل كان يريـد أن يشـبع نهمـه فى عقـاب الفتـى.. فلـم يتركـه إلا بعـد أن اسـتكفي وشـبع.

وبـدا عـلى الفتـى أثـر الـضرب والصفـع.. والتقـي أصدقـاءه الذيـن أخـذوا يواسـونه عـلى مـا حـدث لـه.. لكـن هيهـات أن تضمـد جراحـه بسـهولة.

ومن يومها.. قرر الفتى ألا يأكل توتاً طوال عمره.

الصديق جرجس

كان الفتى يؤمن بالصداقة.. وكان أصدقاؤه يعتزون به لأنه شاعر حساس.. بل إن صفه الدراسي يفتخر على صفوف المدرسة الأخرى لأن به شاعراً يمثلهم فى الندوات والاحتفالات والإذاعة المدرسية.

وكان يجلس بجواره فى الصف الدراسي صديقه جرجس.. وقد ربطت بينهما علاقة طيبة امتدت إلى الأسرتين.

وفى يوم.. مرض جرجس مرضاً خطيراً.. وزاره الفتى عدة مرات فى البيت لكن حالة جرجس الصحية كانت تسرع إلى الانهيار.. حتى رحل صباح أحد الأيام.

حزن الفتى على صديقه حزناً شديداً.. وحزنت المدرسة جميعها.. وأقامت حفل تأبين حضرته أسرة جرجس.

وقام الفتى يؤبن صديقه بقصيدة حزينة استوعبت شجونه.. وصفات صديقه الطيبة.. ثم نشر القصيدة فى إحدى مجلات الحائط.

وبعد مرور أربعين يوماً على وفاة جرجس.. تلقى الفتى دعوة

من الأسرة لكى يلقى قصيدته فى كنيسة بيلا.. فى ذكرى الأربعين.

ويسرع الفتى إلى الكنيسة -لأول مره فى حياته- ويعتلي منصة الحديث.. ويبدأ بإلقاء القصيدة أمام حشد كبير من الحاضرين وزملاء المدرسة والمدرسين.

وما إن بدأ فى إلقاء الأبيات الأولى من القصيدة حتى علا البكاء والنواح.

ولم يستطع الفتى أن يتمالك نفسه.. فانخرط هو الآخر فى بكاء شديد على صديقه جرجس.. واعتذر للجميع عن عدم إكمال قصيدته.

وأقبلت أسرة جرجس عليه يشكرونه على مشاعره الصادقة.. وتظل علاقة الفتى وأسرته بأسرة جرجس مستمرة طوال وجوده فى بلده بيلا.. وكلما حلت ذكرى رحيل زميله يتذكره بكل الصدق والإخلاص.

وهكذا كانت الصداقة ـ ولا تزال ـ عند الفتى هى الشعور الذى يملأ القلب بالحب والصدق.

هواجس صغيرة

أحس الفتى يوماً بألم أسفل بطنه وهو يلعب كرة القدم مع أصدقائه.. كانت الكرة تسمى (الكرة الشراب) حيث تصنع بعناية من الجوارب التالفة (الشرابات).. وكان الفتى يلعب حارس مرمى ماهراً.. وفى هذا اليوم اندفعت الكرة بقوة إلى أسفل بطنه فوقع على الأرض ممسكا بها.. لكنه عجز أن يستعيد قوته بسهولة.

تجمع حوله أصدقاؤه.. وحملوه إلى البيت.. وفى المساء صحبته أمه إلى الطبيب (أنطون) فأخذ يتحسسه.. ومد يده إلى خصيتيه فوجد أحداهما طبيعية والأخرى غير طبيعية.. ثم قال على الفور: الفتى يحتاج إلى عملية.

عملية!.. همست الأم فى رعب شديد..

تبسم الطبيب: لا تخشي شيئا.. دي عملية بسيطة.. اسمها عملية فتق.

كان الفتى قبل هذا اليوم يقرأ فى بعض الكتب التى تشبع مراهقته.. وكيف أن أي خلل جنسي لدي الطفل يمكن أن

يصحبه طوال عمره.. ومن ثم وجد الفتى نفسه مدفوعاً إلى سؤال الطبيب:

العملية دي يا دكتور تأثر عليّ لما أكبر.

قال الدكتور: مش فاهم تقصد إيه.

قال الفتى: يعني ح اخلّف لما اتجوز.

ضحك الطبيب من قلبه.. وكأنه قال نكته أو مزحة.. فاحمر وجه الفتى حياء.. ويبدو أن الطبيب لم يرحم حياءه.. فقال وهو لا يزال يقهقه:

إنت فين والجواز فين.. يا عم أحمد.

ثم أدرك الطبيب أن من واجبه أن يرد على سؤال الفتى.. فخفف من ضحكته وقال في شيء من الجدية:

العملية دي يا سيدي علشان تقدر تخلف.. مبسوط بقي.

دفن الفتى أسئلته الأخرى داخله.. ودفن أيضاً كل هواجسه.. وبدا له أن إجابة الطبيب كانت تجيب عن كل مخاوفه وترد عليها.. وأقبل الفتى بلهفة على العملية.. حتى يطمئن على مستقبله.

ابن الملك

تربي الفتى على احترام الكبير.. والخوف منه.. أي أنه ببساطة كان يقسَّم الناس إلى سلطة ورعايا.

ويتذكر الفتى هذه الهواجس التى كانت تقتحم خياله.. وتؤكد له أن (الملك) هو الذى يستطيع أن يفعل كل شئ حتى المعجزات.

وكان الفتى يسابق أصدقاءه فى سرعة الجرى.. ويسبقهم أو يسبقونه.. وكان القطار هو رمز السرعة فى نظره هو وأصدقائه.. وفى نظرهم أيضاً أن ابن الملك هو الوحيد القادر على سبق القطار فى سرعته لأنه ابن الملك.. وكثيراً ما كان الجميع يتحدون بعضهم البعض فى السباق.. ويعيّرون أنفسهم بالبطء لأنهم ليسوا أولاد الملك!

الأمر نفسه حينما كان الفتى يخرج مع أصدقائه .. ويحضرون حبلا متينا يربطونه مزدوجا فى فرع إحدى الأشجار ويستخدمونه أرجوحة تعلو وتهبط .. وكان ابن الملك أيضا من يستطيع أن يعلو أكثر من الآخرين .. ولا يسقط من عل..

أفكار كثيرة تشعَّبت فى خيال الفتى وهو يستمع إلى زواج الملك فاروق من ناريمان الجميلة.. أو يري صورة الملك وقد وقف على شاربه صقران.. بنظارته السوداء.. إنه فعلاً ملك ابن ملك.. أين هو من هذه الطبقة الراقية التى لها الخدم والحشم والقصور والسيارات الفارهة.

أما الحس السياسي.. فكان حبه للملك حباً لمصر نفسها باعتبار الملك رمز الوطنية المصرية.. وكذلك الذين يعملون إلى جوار الملك.

وكان الشيخ عبد الهادي عيد فى مسجد المعداوي يحاول أن يحلل لرواده ـ والفتى منهم ـ بعض الأخبار السياسية.. وكان معجباً بالنحاس باشا ويعتبره رمزاً أوحد للوطنية.

وأحب الفتى النحاس باشا.. وأدرك بعض أخباره ومواقفه.. وحاول الفتى أن يعبر عن حبه هذا لكن كيف.. إنه لا يستطيع ولا يعرف الرسم.. وغالباً ما ينجح فيه (بالعافية).. رغم محاولات مدرس التربية الفنية تدريس قواعد الرسم له.. لكنه استطاع أن يتعلم شيئا غريباً.. تعلم كيف يرسم وجه النحاس باشا.. وذلك بكتابة كلمة (ملح) بطريقة تظهر فيها حرف الحاء وتجويفها ثم تمد اللام إلى أعلا ويستدير بها إلى اليمين لتلتقي بعد أن يستدير بها مع ذيل حرف الحاء.. وبهذا تظهر عين النحاس الوحيدة فى (بروفيل) الوجه.. مع أنفه المشهور وذقنه المعروفة أيضاً.

ومن ثم استطاع الفتى أن يتقن وجه النحاس فقط.. أما الملك فكان سهل الرسم بطربوشه ووجهه المربع.. وجسمه الضخم العريض الكتفين.. أي أنه كان يرسمه بطريقة المربعات الهندسية.

ويبدو أن الفتى كان مغرماً بالهندسة.. يشهد على ذلك أنه كان مولعاً بالمثلث والمربع والتكافؤ.. ونظريات الهندسة.. وكان سريع الحل لأي تمرين هندسي معقد.. ويتذكر أنه كان ـ بعد أن يفرغ من التمارين ـ يستحدث تمارين أخرى أكثر تعقيداً ويختبر نفسه فى حلها.

ومن ثم نما فى داخله أن الحياة مملوءة بالتعقيدات والمشاكل وعلى الإنسان حلها.. والحياة بلا تعقيدات ولا مشاكل ليست حياة.. بل إن متعة العيش تجئ من قدرة الإنسان على حل مشاكله بنفسه.. وربما كان هذا هو السر فى ركوبه الصعب دائما.. وعدم الإقبال على السهل الميسور الذى يفعله الجميع.

قصيدة تشعل مظاهرة

اعتاد الفتى كل صباح أن يلتقي زملاءه القريبين من بيته.. ثم يبدءوا جميعاً مسيرتهم الطويلة إلى المدرسة الثانوية فى أقصى البلدة.. كان الطريق طويلاً ـ بمقاييس ذاك الزمان ـ لكن سرعان ما ينتهي لأن الصحبة طيبة.. فالأصدقاء يضحكون ويداعبون بعضهم طوال الطريق.. وقد يتحاورون حول المناهج الدراسية أو حول المدرسة والمدرسين.. وخاصة ذلك الناظر العجيب فى بنيته.. فهو ضخم الجثة.. طويل.. قال أحدهم عنه مازحاً: «إن سلسلة ظهره بالعرض».. وكان الجميع يحرصون على الوصول إلى المدرسة مبكراً لحضور طابور الصباح.. وإلا فالناظر يمسك بعصا طويلة يضرب كل تلميذ يتأخر عن موعد الحضور.. وما أشد الألم فوق الأصابع فى أيام الشتاء الباردة.

يتذكر الفتى أنه أخذ يشارك فى الحفلات والندوات بقصائده الشعرية.. وأيضاً فى الإذاعة المدرسية اليومية.. بشرط عرض القصيدة على مدرس اللغة العربية المشرف على الإذاعة.. (رقابة يعنى!)..

ولم يكن الفتى يحمل فى داخله ـ مثل جيله ـ سوى هذا الحس

الوطني العميق وحبه لمصر وللثورة.. وإنجازاتها ومحمد نجيب وعبد الناصر.. وغيرهما.

ولا يزال ماثلاً فى ذهن الفتى ذلك اليوم الذى زار بلده «بيلا» عبد الناصر وحسين الشافعي وصلاح سالم.. وتساءل أيامها أين محمد نجيب.. ولا يزال يتذكرهم وهم يقفون فى سيارة مكشوفة يحيون الناس إلى أن وصلوا إلى مبني هيئة التحرير المقابل للبيت الكبير فى ميدان البلدة.. وأخذوا يخطبون فى الجماهير ويطلبون منهم تأييد الثورة.

تشرّب الفتى هذا الحس الوطني داخله وفى قصائده.. إلى أن جاء يوم من أيام عام ١٩٥٨ وشهدت العراق أحداثاً دامية على أيدي عبد الكريم قاسم.. فثار وجدان الفتى وكتب قصيدة يدين بها عبد الكريم قاسم مطلعها:

يا قاسم التوحيد يا بئس الأعادي والجناة

قسّمت أحرار العراق وسرت فى أزكي دماه

وعزم على إلقائها فى الإذاعة الصباحية أمام طابور الصباح.. لكن.. خشي لو أنه عرضها على مدرس اللغة العربية أن يرفض إلقاءها.

لم يفكر الفتى فى شئ.. رأى مدرس اللغة العربية واقفاً.. لم يعره التفاتا.. دخل بسرعة إلى الميكرفون فى غرفة الإذاعة.. ألقي قصيدته الحماسية التى وقعت فى قلوب التلاميذ وفجرت فيهم الوطنية.. وتعالت هتافات التلاميذ وتحرك الجميع إلى أبواب المدرسة بنفس الحماس الوطني فى مظاهرة قوية.. انفلت الفتى من أقرب الأبواب والتحق بالمظاهرة التى كانت تعني تعطيل الدراسة لهذا اليوم

ليس فقط فى المدرسة الثانوية وإنما فى كل مدارس بيلا.. وبالفعل مرت المظاهرة على كل المدارس وأخرجت التلاميذ ليشاركوا فى الهتاف ضد قاسم العراق.

ويتعمد الفتى أن يكون على رأس المظاهرة.. يحمله أصدقاؤه فوق أكتافهم ويرددون وراءه ما يهتف به.. ثم ها هو يعلو مكاناً مرتفعاً يقابل محل أخيه الأكبر.. ويخاطب بحماسة ووطنية.. ويعيد إلقاء قصيدته.. ويتحلق حول التلاميذ أهل البلدة وأصحاب المحلات فخورين بأبنائهم ومشاركين معهم فيما يفعلون.

وتطوف المظاهرة على قسم الشرطة.. وعلى أماكن أخرى رسمية.. والكل سعيد بها.. وينتهي اليوم.. ويعود كل تلميذ إلى بيته يحكي عن هذا اليوم الوطني.

ويدخل الفتى فى صباح اليوم التالي من باب المدرسة.. ويستدعيه الناظر للقائه..

ماذا لدي الناظر يا تري ؟

لم يتباطأ الفتى.. فهو لم يرتكب جرماً ـ هذا ما استقر فى ذهنه.

استقبله الناظر بغضب شديد صائحاً فى وجهه:

هل رأى المشرف على الإذاعة هذه القصيدة.

حاول الفتى أن يراوغه فقال: لم يكن واقفاً..

صاح الناظر: كان واقفاً.. وأنت لم تعرض عليه القصيدة.. هل تعلم ماذا صنعت هذه القصيدة.. لقد تحرك الأمن فى بيلا وكفر الشيخ.. وجاءوا يسألون عما حدث.. لقد وضعتني فى موقف صعب.

اعتـذر الفتـى للناظـر عـما حـدث.. قبـل عـذره لأنـه كان مثـلاً في الأخـلاق لـدي الناظـر.. وكل مـا حـدث أنـه حرمـه مـن الإذاعـة أسـبوعاً.

لقـد كان الفتـى سـعيداً لأن إحـدى قصائـده أشـعلت مظاهـرة أو فجـرت ثـورة ..!

obeikan.com

تخصص إنجليزى

انتقل الفتى من السنة الأولى الثانوي إلى السنة الثانية.. وفى هذه السنة يتخصص التلاميذ إما فى القسم الأدبي أو فى القسم العلمي.

ولأن ميول الفتى منذ صغره تتجه إلى الأدب.. تخصص فى القسم الأدبي وبالرغم منه وجد نفسه ـ أيضاً ـ يقبل التخصص فى التاريخ.. مثل كل زملائه.

كان الفتى يحب قراءة التاريخ.. ويستلهم منه كثيراً من المواقف والأحداث يعبر عنها فى أشعاره.

وحدث أن دخل عليهم مدرس التاريخ ليشرح لهم درسه الأول.. فلم يعجب الفتى هذا المدرس.. وقرر أن يغير تخصصه إلى أي مادة أخرى: لغة عربية أو لغة إنجليزية.

طلب الفتى مقابلة ناظر المدرسة.. وباح له برغبته فى تغيير تخصصه.

سأله الناظر: لماذا تريد أن تتخصص فى مادة أخرى غير التاريخ.

قال الفتى: لم أفهم شيئا من شرح المدرس.. وأمامي عامان علىَّ أن أتقبل هذا المدرس على مضض.

قال الناظر: أتعلم أن منطقة كفر الشيخ كلها تخصص تاريخ.. كما أن تخصص أي مادة لا يجوز بتلميذ واحد.. ولكن على الأقل يفتح هذا التخصص بخمسة تلاميذ.

قال الفتى: حسناً سيدي.. أستطيع أن أجمع لك خمسة تلاميذ.

وافق الناظر من حيث المبدأ.. ظنا منه أن الفتى سوف يفشل فى جمع خمسة تلاميذ يرغبون فى اللغة الإنجليزية.

لكن الفتى بذل جهداً خارقاً فى تجميع أربعة من زملائه وإقناعهم بهذا التخصص.

وبعد أسبوع دخل الخمسة إلى ناظر المدرسة ووقع الجميع على استمارات الرغبات بتغيير تخصصهم من التاريخ إلى اللغة الإنجليزية.

وتحمس الناظر لهذه الخطوة.. فهي تسجل للمدرسة سبقاً على غيرها من المدارس فى منطقة كفر الشيخ التعليمية.

وكان أمام الناظر صعوبة أخرى تمثل فى عدم وجود مدرس على مستوى علمي جيد لتدريس مادة التخصص.

واستطاع الناظر فى مدة قصيرة أن ينتدب مدرساً من القاهرة حاصلاً على ماجستير فى اللغة الإنجليزية ليدرس للتلاميذ مواد التخصص.

وكان الأمر عجيباً وغريباً أن يتخصص خمسة تلاميذ على مستوى محافظة كفر الشيخ فى اللغة الإنجليزية.. وأن يحضر

مـدرس ذو مسـتوى ممتـاز فى اللغـة حاصـل عـلى درجـة الماجسـتير ليـدرس لهـؤلاء التلاميـذ.

وفى الحقيقـة.. لقـد اجتهـد التلاميـذ الخمسـة طـوال السـنتين (الثانية والثالثـة) مـن المرحلـة الثانويـة.. وحصلـوا على درجـات عاليـة فى مادة التخصـص.. وعـادت المدرسـة بعـد ذلـك إلى تخصـص التاريـخ كأي مدرسـة فى كفـر الشـيخ.. وعـاد المـدرس المنتـدب إلى القاهـرة مـرة أخـرى بعـد أن أدي مهمتـه بنجـاح.

obeikan.com

نقلة لتحقيق الحلم

كانت فرحة الأسرة الصغيرة بانتهاء الفتى من امتحان الثانوية العامة.. تفوق كل تصور.. فقد ازدحمت الأحلام فى رأس الفتى بالانتقال إلى القاهرة.. وعرض ابن عمه (كمال) - الذى زار القاهرة من قبل - السفر معه وتسليمه إلى خاله الذى وعده بالعمل لديه فى دار النشر بعد الانتهاء من الثانوية العامة.

وتحدد الموعد.. واستقلا القطار بعد وداع حار من أهل الفتى وأصدقائه.. ويجلس الفتى بجوار شباك القطار يتطلع إلى المجهول.. وتتصارع فى داخله مشاعر كثيرة.. وأسئلة أكثر.. لكنه فضل أن يحبسها جميعاً داخله حتى يصل إلى هذه المدينة التى تجسد حلمه المتوقع.. ساعات طويلة مرت عليه داخل أكثر من قطار.. يتبادل مع ابن عمه بعض الحديث.. لكن ذهنه مشغول بأمور أخرى.

وأخيراً وصل القطار إلى القاهرة حيث توقف فى المحطة.. اندهش الفتى أمام ما رآه فى هذه المحطة المعروشة بالزجاج.. والتى يقف فيها قطارات كثيرة.. والتى يرن فيها الصوت حينما يعلن عن قيام قطار أو وصول قطار.. ما هذا كله.. إذا كانت

المحطة بهذه العظمة وهذه الدهشة فماذا تكون القاهرة.

لحسن الحظ كان مكان خال الفتى قريباً من المحطة نسبياً.. أي أنهما سوف يصلانه مشيا على الأقدام.. وجدها الفتى فرصة لمصافحة وجه القاهرة الجديد.. إنه وجه غريب عجيب حقا.. أين بيلا من هذه المدينة.. أبواق السيارات.. شوارع مرصوفة.. ناس كثيرون يعبرون الشوارع.. باعة على الأرصفة.. محلات.. فتيات.. ماذا.. نعم فتيات يرتدين ملابس ضيقة ويمشين بتمايل ودلال.. ألا يوجد حياء فيهن.. نحىّ ذلك الخاطر المغلق عن ذهنه.. وترك عينيه تتأملان كل شئ.

وصلا إلى المكان.. إنه مبني كبير فى سوق التوفيقية له سلم كثير الدراجات مرتفع.. كأنه قصر من القصور التى كان يتخيلها حينما كان يستمع إلى ألف ليلة فى الراديو.. دخلا المبني الكبير سألا عن خال الفتى لم يكن موجودا.. لكن السكرتيرة حينما عرفت شخصيتهما.. أدخلتهما إلى غرفة الخال..

دخل الفتى وابن عمه غرفة الخال.. ما هذه الأبهة.. والنظافة والأثاث المريح.. والاتساع الغريب.. كأنه حلم.. هو بالفعل حلم لدي الفتى.. فإذا تكرر رؤيته مرة ومرة فربما يقتنع أنه أصبح واقعاً.. مازالت الدهشة تعلو وجهه.. فجأة: سأله ابن عمه:

ما رأيك؟

رد عليه وقد جعله يفيق من دهشته: أنا كنت بحلم..

ضحك ابن عمه.. وقال:

حلم إيه يا عبيط.. إحنا فى القاهرة.. عارف يعني إيه القاهرة..

حاول تنسي بقي السذاجة اللي كنت فيها فى البلد.. وابتدي بداية جديدة هنا.

قطع هذا الحوار دخول شاب يلبس قميصاً وبنطلوناً مثلهما.. اقترب منهما.. قام الفتى من على مقعده ليسلم عليه.. ارتبك الشاب وقال:

تفضل يا بيه.. تفضل.. تحب تشرب إيه ؟

لاحقه ابن عمه وأناب عنه فى الرد:

اثنين شاي لو سمحت.

قال الشاب: أمرك يا بيه.. وخرج.

ابتسم ابن عمه معاتباً:

كويس اللي أنت عملته ده.. دا الساعي.. الراجل داخل يسألك عاوز تشرب إيه.. تقوم له وتسلم عليه.. ده كلام.

علت وجه الفتى حمرة الخجل وهو يرد:

اعذرني يا ابن عمى.. أول مرة فى حياتى يحصل لي ده.

بعد قليل دخلت السكرتيرة.. وقالت:

الأستاذ اتصل من بره وجاى حالاً.

رد عليها ابن عمه: شكراً يا ستي.

لم يكن لمح الفتى ملامح السكرتيرة حينما دخلا عليها فى البداية.. لكن الفتى هنا كانت أمامه فرصة قصيرة ليراها كاملة.

رآها الفتى أجمل الجميلات.. الشعر الأصفر.. والوجه الأبيض

المشوب بحمرة.. والجسم النحيل الملفوف.. والرشاقة فى الحركة.

يعنى إيه سكرتيرة ؟

سأل الفتى ابن عمه.. لكن يبدو أن ابن عمه قد أدرك ما خفي من المشاعر فرد عليه.

إيه رأيك فيها.. حلوة.

دق قلب الفتى.. وعلاه الحياء.. ولم يرد.

قال ابن عمه: طبعاً حلوة.. مش زي بنات بلدنا.

قطع الحوار دخول الساعي بالشاي.. وضعه بأدب شديد.. ثم سألهما: أي خدمة ؟

قال ابن عمه: شكراً

بعد وقت قليل دخل الخال فى هيئته الراقية الشامخة.. رحب بهما ترحيباً شديداً.. سأله الخال عن أمه وإخوته.. بدأ حديثاً ودوداً.. فهم منه الفتى أن حياة جديدة توشك أن تبدأ..

أية حياة تلك يا تري ؟

أية نقلة سوف يقوم بها الفتى.. ما الذى ينتظره فى الغد ؟

كان خاله قد أعد كل شئ للفتى عن هذه الحياة الجديدة..

obeikan.com

الشعر.. هذا السلطان

أما هوايات الفتى فبالرغم أنها هوايات محدودة.. فقد كان يأخذها مأخذ الجد.. فهو مشغوف بالقراءة فى كتب الشعر القديم والشعر الصوفي وألف ليلة وليلة.. وساعدته حصة المكتبة وحصة الخطابة على قراءة الكتب العصرية لطه حسين والعقاد والمنفلوطي وغيرهم.. يتذكر جيداً أنه كان سباقاً فى حصة المكتبة إلى قراءة واستيعاب الكتاب ثم يقف فى حصة الخطابة متمثلاً شخصية المدرس الذى يجلس فى مكانه.. ويواجه زملاءه ومعهم المدرس ويشرح لهم ما جاء فى الكتاب.. ويجيب على أسئلتهم.. وكان أول كتاب يشرحه الفتى لزملائه (الأيام) لطه حسن.. ولعل تكرار هذه المواجهة هى التى جعلته فيما بعد نجماً فى الندوات واللقاءات المختلفة..

أما علاقته بالشعر.. فقد بدأت مبكرة.. وعلى وجه التحديد فى أحداث بور سعيد عام ١٩٥٦ ولم يكن بلغ الرابعة عشرة من عمره بعد.

فقد شغف الفتى بالأغاني الوطنية التى كانت تذاع آنذاك وتحمس الجماهير وتدعوهم إلى النضال.. وإلى التبرع إلى المجهود الحربي بعد رفض الدول الكبرى مساعدة مصر على مواجهة العدوان الثلاثي.

ويتذكر الفتى أنه أعجب بأغنية عبد الوهاب {سلح جيش أوطانك.. واتبرع لسلاحه}. ومن شدة إعجابه بهذه الأغنية كتب على غرارها أولى محاولاته الشعرية بالعامية.. ووجدها فرصة لعرضها على صديقه الشيخ حسن محرم الحويني طالب الأزهر آنذاك والذى كان يلتقي به كل يوم فى المسجد.

انطلق الفتى إلى صديقه وألقي عليه ما كتبه وصديقه صامت لا يعلق ولا يوجد فوق وجهه أي انفعال بما يسمع.. وكاد الفتى يمزق الورقة التى كتب فيها قصيدته لكن الشيخ لاحقه فى هدوء: هذا جميل لكن الأجمل أن تكتب هذه المعاني بالفصحى وأنا أعرف أنك ممتاز فى اللغة العربية.. ضحك الفتى وقال فى استحياء:

يعنى ح ابقي شاعر يا أخى.

رد صديقه فى تأكيد:

ولم لا.. أنا شايف إن عندك حس موسيقي ولغة.. وهى دي الموهبة.. ويا سيدي مش ح نخسر حاجة نحاول..!

وعد الفتى صديقه بالمحاولة.. وبالفعل بدأ الفتى دربه الطويل مع الشعر من هذه الشرارة التى فجرها فيه صديقه.. وظل معه حتى أتقن أول قصيدة فصحى.

ولا ينسي الفتى طوال حياته موقف هذا الصديق الذى هو الآن أحد نجوم التدريس فى جامعة الأزهر.

ويتذكر الفتى أنه كان يكتب موضوع التعبير ثم ينهيه بمقطوعة شعرية من تأليفه بعد أن يكتب (قال الشاعر).

ويظل على هذه العادة فى كل موضوعات التعبير.. حتى جاء يوم وسأله مدرس اللغة العربية.. لماذا لا تكتب اسم الشاعر الذى قال هذه الأبيات.

وهنا طأطأ الفتى رأسه خجلاً.. لكن المدرس أعاد السؤال بأسلوب مستفز:

ألا تعرف الشاعر الذى نقلت عنه هذه الأبيات.. كيف ؟

وهنا.. فاجأ الفتى المدرس بقوله:

إنه أنا.. أنا الشاعر صاحب الأبيات.

وفوجئ المدرس.. لكنه تحول فجأة من المدرس المستفز إلى المدرس الموجه.. المحب للفتى.. والمتابع لكل ما يكتب.

ويظل الشعر زاد الفتى طوال عمره.. وكعادته فى أخذ كل شئ فى حياته مأخذ الجدية.. كان يشترك فى الندوات والأمسيات فى بداية شق طريقه فى ساحة الشعر ويستفيد من الأساتذة والشعراء الذين سبقوه.. وبدأ ينشر أشعاره بالفعل منذ عام ١٩٦٤ بعد انتقاله إلى القاهرة وهذه البداية أيضاً لم تكن سهلة وإنما هو لإدراكه أن الإعلام الأدبي قد يزيف ولا يصدق.. أرسل بالقصيدة التى رآها تصلح لتقديمه للقارئ إلى إحدى المجلات البيروتية بدون واسطة فنشرتها المجلة.. ثم تقدم بها إلى وسائل النشر بالقاهرة واثقاً فى خطوه وإبداعه.

وهذه مرحلة أخرى حافلة بالحكايات والشخصيات سوف نخصص لها الباب القادم.